

القدّيس فلاديمير معمّد روسيا

ترجمها عن الروسية : عامر هلسا

سلسلة الشهداء والمعترفون الروس ١

فلادمير محمّد روسيا

الجبل للنشر والتوزيع

التراث السلافي الأرثوذكسي

الكتاب : فلادمير معمّد روسيا.

المترجم : عامر هلسا .

الناشر : الجبل للنشر والتوزيع .

الطبعة : الأولى ، ٢٠١٦.

لطلب الكميات داخل جمهورية مصر العربية :

دار مجلة مرقص – شارع شبرا - ٠٠٢٠١٢٧٧٣٩٧٧٧٢

لطلب الكميات داخل المملكة الأردنية الهاشمية :

٠٠٩٦٢٧٩٦٥٠٠٣٣٢

لطلب الكميات داخل لبنان وسوريا :

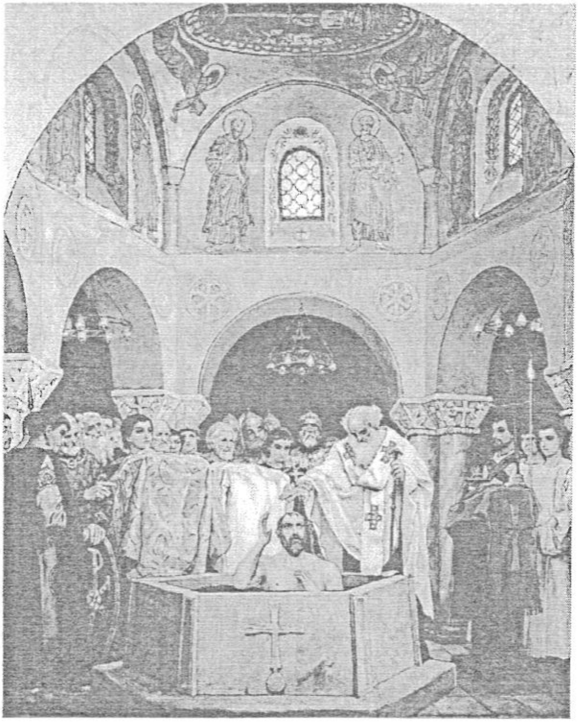
٠٠٩٦١٣٦٠٣٧٨٣

فلادمير محمّد روسيا

ترجمة / عامر هلسا

مراجعة : الدكتورة / يوليا بيتروفا

دليل الكتاب



معمودية الأمير فلادمير

المسيحية في روسيا قبل معموديتها

ليس من الصحيح الاعتقاد بأنّ معمودية روسيا هي التي أتت بالمسيحية إلى هذه البلاد. كانت معموديتها بأمر من الأمير فلاديمير في عام ٩٨٨ تثبيتاً حكومياً للإيمان المسيحي والكنيسة في الأراضي الواقعة على الطريق التجاري الطويل المعروف باسم "**الطريق من الفارياغ إلى الروم***" حيث أصبحت المسيحية تنتشر تدريجياً بفضل العلاقات التجارية النشطة. فكيف كانت المسيحية في روسيا ما قبل معمودية الأمير فلاديمير وما هي مصادرها؟

بحسب التقليد والمراجع التاريخية تنقسم عملية تنوير روسيا بنور الإنجيل إلى خمس مراحل وهي على النحو التالي:

١. كرازة الرسول أندراوس في بلاد الروس.

يقول التقليد إنّ الرسول أندراوس أثناء تواجده في مدينة خيرسونس

---

* "الطريق من الفارياغ إلى الروم" - هو الطريق البحري والنهري من البلطيق إلى بيزنطا عبر أوروبا الشرقية الذي ظهر في أوائل القرن التاسع. في البداية استخدمه الإسكندنافيون لشنّ الغارات على البلاد الأكثر غنىً وثقافة وفيما بعد أصبح التجّار الروس يستخدمونه لممارسة التجارة مع بيزنطا والبلاد الشرقية وإسكندنافيا بفضل موقع روسيا القديمة الجغرافي على ملتقى الطرق التجارية.

(جنوب شبه جزيرة القرم) للكرازة في بلاد سكيثيا بحسب القرعة التي ألقاها الرسل عرف بأن مصبّ نهر الدنيبر قريب فقرّر أن يبحر في النهر نحو الشمال. بلغ الرسول التلال التي أنشئت عليها لاحقاً مدينة كييف ليبيت في ذلك المكان وقال لتلاميذه المرافقين: **"أترون هذه الجبال؟ إنّ نعمة الله ستشرق عليها وستكون هنا مدينة عظيمة ويقيم الله فيها كنائس كثيرة"**. فصعد الرسول هذه التلال وباركها وصلّى للرب ونصب عليها الصليب.

يشكّ بعض المؤرّخين في صحّة هذه القصّة الواردة في سفر **"أخبار الأعوام الغابرة**"**، ولكن تقليد التكريم الخاصّ للرسول أندراوس في روسيا منذ قديم الزمان واعتباره شفيعاً سماوياً لها يعطي المجال للافتراض بأنه كان يكرز قريباً جداً من الأراضي الروسية، على الأقلّ في منطقة شمال البحر الأسود التي تدخل تاريخياً في بلاد الروس.

٢. كرازة القدّيسين المعادلين للرسل كيرلس وميثوديوس.

في عام ٨٦٢ جاء إلى القسطنطينية سفراء من أمير مورافيا روستيسلاف طالبين من الإمبراطور إرسال معلّمين قادرين على التعليم

** "أخبار الأعوام الغابرة" أو "مدوّنة نسطور" هي أوّل مدوّنة تاريخية روسيّة معروفة ترجع إلى أوائل القرن الثاني عشر، وهي منسوبة إلى القدّيس نسطور مدوّن التاريخ الذي كان راهباً بمغاور كييف.

والوعظ لشعبها بلغته الأمّ. فعيّن الإمبراطور والبطريرك الأخوين من تسالونيكي - كيرلس وميثوديوس - للقيام بهذه المهمّة. توجّه الأخوان إلى مورافيا حيث قضيا ثلاث سنوات وترجما الكتب المقدّسة إلى اللغة السلافية وعلّما السلاف القراءة والكتابة وإقامة الخدمة الإلهية بلغتهم التي كانا قد وضعا الأحرف لها.

هناك افتراض بأنّ السلاف الشرقيين قد سمعوا كرازة القدّيس كيرلس أثناء تواجده في دولة الخزر*** في مهمّة دبلوماسية في عام ٨٦٠- ٨٦١. في تلك الفترة كان كثير من القبائل السلافية الشرقية خاضعة للخزر. بحسب سيرة القدّيس كيرلس اعتنق كثير من الناس المسيحية بعد مشاركته في الجدال اللاهوتي في بلاط الخاقان الخزري، ويفترض المؤرّخون بأن معظمهم كانوا من القبائل السلافية والتركية الخاضعة للخزر.

لقد ساهمت مهمّة الأخوين القدّيسين مساهمة عظيمة في نشر الإيمان المسيحي بين الشعوب السلافية. أصبحت ترجمتهما للكتب المقدّسة نقطة تحوّل في تاريخ الشعوب السلافية مهّدت لمعمودية روسيا التي تمّت في القرن التالي. بحسب بعض المراجع عمّد القدّيس كيرلس

*** إمبراطورية الخزر: دولة حكمت من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر في جوار بحر قزوين من بحيرة وان ومن البحر الأسود إلى كييف، ومن بحر آرال إلى المجر.

في التخوم الجنوبية للبلاد الروسية حوالي ٢٠٠ عائلة.

٣. معمودية الروس في عهد الأميرين أسكولد ودير.

في عام ٨٦٠ بينما كان الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث غائباً عن عاصمته يحارب العرب في آسيا الصغرى، ظهر عند أسوار القسطنطينية أسطول يتكوّن من ٢٠٠ سفينة تابع لأعداء الإمبراطورية الجدد وهم الروس وعلى رأسهم أميرا كييف **"أسْكولْد"** و**"دير"**، ممّا أثار رعب سكّان العاصمة البيزنطية بسبب مفاجأة هذه الغارة وغياب الملك وجيشه. لم يتمكّن الروس من اقتحام أسوار القسطنطينية المتينة ولكنهم قاموا بتخريب ضواحي المدينة ونهب الجزر المحيطة بها وقتل جميع الأسرى. كان البيزنطيون في حيرة شديدة إذ أنهم لم يعرفوا من الذي قام بالهجوم عليهم. سمّاهم البطريرك فوتيوس في أيّام الحصار **"شعباً من الشمال"** و**"شعباً من أقاصي الأرض"**.

بحسب المراجع البيزنطية كان الإمبراطور مضطرّاً إلى العودة فور معرفته خبر حصار العاصمة، وكان يصلّي مع البطريرك والشعب طوال الليل في كنيسة **"فلاخيرنا"** الشهيرة حيث كان يُحفظ أهمّ مقدّسات القسطنطينية وهو ثوب والدة الإله العجائبي. وفي الصباح أخذ البطريرك هذا الثوب وطاف به على امتداد أسوار المدينة بمرافقة التراتيل والصلوات ونزل به إلى مياه البوسفور، وما أن لامس الثوب سطح الماء حتى هاج البحر الهادئ وشتتت العاصفة سفن الروس

وانكسرت وغرقت معظمها ولم ينجُ إلا عدد قليل منها.

بعد هذه الحادثة بقليل ورجوع الروس إلى بلادهم أرسل الأميران "أسْكولْد" و"دِير" إلى القسطنطينية سفراء طالبين المعمودية، وذلك بحسب خطاب القديس فوتيوس بطريرك القسطنطينية الذي أرسله إلى البطاركة الشرقيين جاء فيه عن رغبة الروس في اعتناق الإيمان المسيحي. فتمّ تلبية طلبهم وإرسال أسقف إليهم.

يتفق كثير من الباحثين وخاصّة المؤرخون الكنسيون في أنّ الأميرين "أسْكولْد" و"دِير" ونبلاءهما وعدد من الشعب اقتبلوا المعمودية المقدّسة في كييف على يد الأسقف الذي أرسله البطريرك فوتيوس في ستينات القرن التاسع بعد حملة الروس الفاشلة على القسطنطينية. ويُطلق على هذا الحدث في بعض المراجع "**المعمودية الأولى لروسيا**" أو "**معمودية أسكولد**" أو "**معمودية فوتيوس**". وقد أصبحت روسيا في أواخر القرن التاسع أبرشية رقم ستين لبطريركية القسطنطينية.

٤. معمودية الأميرة القدّيسة أولغا.

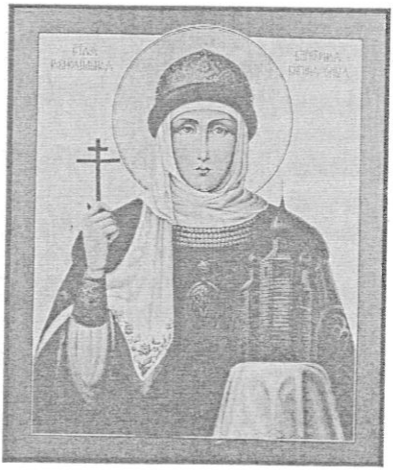
كانت أولغا زوجة للأمير إيغور وبدأ حكمهما في عام ٩١٢ عندما دخلت المسيحية في صراع مع الديانة الوثنية الروسية القديمة. في آخر سنوات حكم الأمير إيغور كانت المسيحية قوة روحية ملموسة في الدولة الروسية، والشيء الذى يدلّ على ذلك هو الاتفاق الذى وقّعه

إيغور مع الروم في عام ٩٤٤ وجاء فيه أنّ اتفاقية السلام بين الروس والقسطنطينية يجب أن يُصدّق عليها من قبل الطائفتين الدينيتين لكييف: كان "**الروس المعمّدون**" أي المسيحيون يؤدّون قَسَمهم في كنيسة النبي إيليا، أما "**الروس الغير المعمّدين**" (الوثنيون) فكانوا يحلفون على الأسلحة في معبد الإله الوثني بيرون. ويرد ذكر المسيحيين قبل الوثنيين في هذه الوثيقة ممّا يدلّ على مكانتهم البارزة في روسيا القديمة في تلك الفترة وعلى وجود أشخاص متعاطفين مع المسيحيّة في الأوساط الحاكمة. هناك اعتقاد بأنّ الأمير إيغور نفسه كان من بينهم ولكن مكانته الرسمية لم تسمح له باعتناق دين جديد شخصياً قبل نشره في بلاده. لذلك تمّت صياغة نص الاتفاق في عبارات دبلوماسية ليّنة سمحت بإقراره كقسم وثني ومسيحي على حدّ سواء.

ومن ناحية أخرى كانت مواقف الوثنية في كييف قويّة جداً إضافة إلى نفوذ الخزر اليهود الذين كان من مصلحتهم عرقلة نشر المسيحية في بلاد الروس. لم يستطع الأمير إيغور مقاومة المعارضين ووقّع على الاتفاق المذكور كوثني ممتنعاً عن نعمة المعمودية وقُتل من قبل الوثنيين في عام ٩٤٥. بعد موته تولّت زوجته أولغا الحكم لأنّ ابنهما سفياتوسلاف كان آنذاك في الثالثة من عمره.

دخلت أولغا في التاريخ كمدبّرة عظيمة للحكم والثقافة في روسيا القديمة. ولكن اهتمام الأميرة الحكيمة (**وهذا هو لقبها "أولغا**

الحكيمة") لم يقتصر على تثبيت الحكم وتطوير الاقتصاد فقط، بل أصبح شغلها الشاغل هو العمل على التنوير الروحي والحياة الدينية في بلادها. قد أصبحت روسيا في ذلك الوقت دولة عظيمة ولم يستطع منافستها في القوّة إلا الدولتان الأوربيتان هما الإمبراطورية البيزنطية في الشرق ومملكة الساكسون في الغرب. وأدركت الأميرة أنّ خبرة هاتين الإمبراطوريتين المسيحيتين تدلّ على أنّ الطريق إلى عظمة روسيا هو ليس طريق النجاحات الحربية فحسب، بل الإنجازات الروحية بالدرجة الأولى. ولذلك توجّهت الأميرة أولغا في عام ٩٥٤ إلى القسطنطينية مع أسطول كبير في مسيرة سلام كانت أهدافها تجمع بين الزيارة الدينية والرسالة الدبلوماسية وعرض القوّة العسكرية لروسيا.



الأميرة القديسة أولغا

أسفرت هذه الزيارة السلمية عن التمهيد للحوار الودّي الروسي البيزنطي. وقد أبهرت عاصمة الإمبراطورية الأرثوذكسية ابنة البلد الشمالي بتنوّع الألوان والأشكال وبهاء العمارة وكثرة اللغات والثقافات. وأُعجبت بشكل خاص بجمال الكنائس وكثرة مقدّساتها، وحضرت الأميرة الروسية القداديس في أجمل كنائس القسطنطينية منها كنيسة آجيا صوفيا وكنيسة فلاخيرنا. ففتحت أولغا الحكيمة قلبها للإيمان الأرثوذكسي المقدس وقرّرت اعتناق المسيحية.

اعتمدت أولغا على يد بطريرك القسطنطينية ثيوفلاكتوس (٩٣٣- ٩٥٦)، أمّا عرّابها فكان الإمبراطور قسطنطين السابع نفسه (٩١٢- ٩٥٩)، وقد أورد في مؤلّفه **"حول مراسم البلاط البيزنطي"** وصفاً مفصّلاً للمراسم التي أقيمت أثناء تواجد أولغا في القسطنطينية. حصلت الأميرة على اسم هيلانة في المعمودية على شرف القدّيسة هيلانة المعادلة للرسل والدة الإمبراطور قسطنطين. وبعد إتمام سرّ المعمودية توجّه البطريرك إلى الأميرة بكلمة إرشاد قائلا: **"مباركة أنت في النساء الروسيات، بما أنك قد تركت الظلمة وأحببت النور. فيباركك الروس في جميع الأجيال القادمة، ابتداءً من الأحفاد وأبنائهم حتى أبعد أسلافك"**. فأرشدها البطريرك في الإيمان والقوانين الكنسية والصلاة وشرح لها وصايا المسيحية.

تخبرنا المدوّنة التاريخية بأن أولغا كانت تتحدّث مع الإمبراطور بعزم وكنِدٍّ له وأعجبت الروم بنضوجها الروحي وحكمتها السياسية وهي تحاول إقناعهم بأن الشعب الروسي قادر على استيعاب إنجازات الروم الدينية والثقافة البيزنطية الرفيعة بل وعلى أن يزيد من ثمارها. وهكذا نجحت أولغا في "اقتحام" القسطنطينية بطريقة سلمية وذلك ما لم يستطعه أحد من القادة العسكريين من قبل.

ومع أنّ أولغا تمكّنت من التوصّل إلى اتفاق حول تجارة الروس في حدود الإمبراطورية وإعادة إقرار اتفاقية السلام الموقعة في عام ٩٤٤ من



معمودية الأميرة أولغا

قبل الأمير إيغور، لم يوافق الإمبراطور على أمرين مهمّين بالنسبة لروسيا وهما زواج ابن أولغا سفياتوسلاف من الأميرة البيزنطية وإعادة تأسيس المطرانية في كييف التي كانت موجودة في عهد الأمير أسكولد وقد تمّ إلغاؤها.

عادت أولغا إلى كييف مع الأيقونات والكتب الطقسية وبدأت خدمتها الرسولية. بالرغم من الفشل في محاولة إقامة المطرانية، أصبحت الأميرة تكرّس وقتها للتبشير بين الوثنيين وتهتمّ بإنشاء الكنائس. وفي عهدها بنيت كنيسة القديس نيقولاوس وكنيسة آجيا صوفيا في كييف، وكنيسة البشارة في فيتيبسك وكنيسة الثالوث القدوس في بسكوف **(ومنذ ذلك الحين أصبحت مدينة بسكوف تُدعى في المدوّنات التاريخية "بيتاً للثالوث القدّوس")**.

ليس من باب الصدفة أن حصلت الأميرة أولغا على اسم هيلانة في المعمودية. لقد جاءت من القسطنطينية بصليب مصنوع من خشبة الصليب الكريم وأصبح أهمّ المقدّسات لكنيسة آجيا صوفيا في كييف. وكانت على هذا الصليب كتابة تقول: "**لقد تجدّدت الأرض الروسية بالصليب المقدّس الذي اقتبلته أولغا الأميرة الحسنة العبادة**". تمّ تكريس كنيسة آجيا صوفيا في ١١ مايو - أيار ٩٦٠ وأصبح هذا التاريخ فيما بعد عيداً خاصّاً في الكنيسة الروسية.

ولكن كثيراً من النبلاء في كييف كانوا يكرهون الأميرة

القدّيسة أولغا من أجل الحكمة الإلهية التي كانت تنشئ لها الكنائس، وأصبح الغيورون على الديانة القديمة يربطون آمالهم بالأمير سفياتوسلاف الشاب الذي قد رفض طلبات والدته بقبول المسيحية وأبدى غضبه لهذا السبب.

عندما كبر سفياتوسلاف وتسلّم زمام الحكم لم يبق للأميرة أولغا إلا أن تخضع للأمر الواقع وتكرّس نفسها إلى أعمال التقوى الشخصية. بالرغم من أنها كانت لا تزال تتمتّع بنفس القدر من الاحترام وكانوا يلجأون إليها للاستفادة من حكمتها السياسية، لم يكن من الممكن في تلك الظروف تحقيق حلم الأميرة وهو تخليص روسيا من الديانة الوثنية وتحويلها إلى دولة مسيحية.

ومع ذلك شكّلت معمودية أولغا نقطة بالغة الأهمّية في طريق روسيا إلى المسيحية التي تم إقرارها بعد ثلث قرن. لقد سمّاها مدوّنو التاريخ **"فجراً يمهّد لشروق الشمس"** (أي للأمير فلاديمير). وضعت الأميرة القدّيسة أساساً متيناً للحضارة المسيحية في روسيا وتُعتبر أمّاً للأرثوذكسية الروسية. ولذلك منحتها الكنيسة رتبة القدّيسة المعادلة للرسل.

لم يكن ابن أولغا سفياتوسلاف يهتمّ إلا بالحملات العسكرية ومنافسة أجداده الإسكندنافيين في المجد الحربي، الأمر الذي ربطه بالديانة الوثنية التي كانت مناسبة لعقليته وتطلعاته. لم يكن له أي

تعاطف مع المسيحية، وبعد رقاد الأميرة أولغا في عام ٩٦٩ أصبحت الأرثوذكسية تضيع مواقفها في روسيا إلى أن بلغت الوثنية أوج ازدهارها في عهد الأميرين سفياتوسلاف وفلاديمير.

ولكن من ناحية أخرى ساهم الأمير سفياتوسلاف وهو وثني غيور في تذليل أكبر عقبة في طريق روسيا إلى المسيحية وهي دولة الخزر اليهودية التي دمّرها بالكامل نتيجة لحملاته العسكرية الناجحة. فاتحدت القبائل السلافية الشرقية في دولة واحدة. وبالتالي حافظ سفياتوسلاف على وحدة روسيا وحماها من التهديدات الآتية من الجنوب الشرقي. ألهمه هذا النجاح إلى درجة أنه قرّر توجيه جيوشه نحو الأراضي البيزنطية. ولكن هذه المرّة باءت حملته بالفشل المخزي، فحلف الأمير المتكبّر بالقضاء على جميع أتباع إيمان الإمبراطور البيزنطي في بلاده بعد عودته إليها من بلغاريا وأرسل مرسلاً إلى كييف يأمر عن طريقه بإحراق كل الكنائس فيها. ما أنقذ مسيحيي كييف من هذه المصيبة هو قتل سفياتوسلاف المفاجئ في معركته مع قبائل البجناك في طريق العودة.

٥. معمودية الأمير فلاديمير.

أصبح ياروبولك الابن الأكبر لسفياتوسلاف أميراً لكييف بعد موت أبيه، وقد تربّى مع شقيقه الأصغر أوليغ على يد جدّتهما الأميرة أولغا وبالتالي تأثر كثيراً بالأخلاق المسيحية. إضافة إلى ذلك كان

متزوّجاً من يونانية مسيحية قد أسرها أبوه في إحدى حملاته وأرسلها إلى ولي عهده. ليس من المعروف إذا كان ياروبولك مسيحياً متخفياً، ولكن مما لا شكّ فيه أنه كان يحمي المسيحيين ومنحهم حرّية العبادة.

أما فلاديمير الابن الأصغر لسفياتوسلاف فلم يكن يحظى بالشعبية ولم يكن له نفس الحقوق مع أخويه كونه مولود من الجارية مالوشا خادمة الأميرة أولغا، ولذلك أصبح نصيبه في الحكم مدينة نوفغورود البعيدة التي كانت معقلاً لحزب الوثنيين، وقد شكّلوا هناك معارضة للسلطة في كييف التي قد انتشرت فيها المسيحية على نطاق واسع. ترأس فلاديمير الشابّ هذه الحركة وتوصّل إلى السلطة في كييف في عام ٩٨٠ بعد محاربته لأخيه ياروبولك وقتله بالغدر.

كان الأمير الشاب آنذاك وثنياً غيوراً تمثلت فيه كافة الرذائل والصفات الوحشية الخاصّة بالوثنيين الروس. كان يبدو أن المسيحية في روسيا وصلت إلى آخر عهدها بعد استيلاء فلاديمير على السلطة في كييف. واجهت المسيحية اضطهاداً في بداية عهده حيث أنه أمر المسيحيين بعبادة الأصنام وجعل عبادة الإله بيرون ديانة رسمية للدولة وأدخل ذبائح من البشر في روسيا.

في عام ٩٨٣ بعد إحدى حملاته العسكرية الناجحة أراد فلاديمير أن يشكر آلهته وقرّر أن يرضيهم بدم بشري. وبنصيحة من النبلاء ألقى

قرعة وأصابت القرعة الشاب يوحنا وهو ابن لأحد الفارياغ (الإسكندنافيين) المسيحيين. كان والده ثيودور يتوسّل إلى المرسلين من الأمير ليقنعهم بأنّ الآلهة الوثنية مجرّد أصنام مصنوعة بأيدي البشر، ولكن الحشد المغيظ اقتحم بيتهما وقتلهما، وبالتالي أصبحت آخر الذبائح الوثنية في روسيا أوّل شهادة مسيحية فيها، ويُعتبر ثيودور ويوحنا أوّل الشهداء المسيحيين في روسيا (**تعيّد لهما الكنيسة في ١٢ يونيو- حزيران**).

إنّ الطريق "**من الفارياغ إلى الروم**" المذكور آنفاً أصبح بالنسبة لروسيا طريقاً من ظلمة الوثنية إلى نور المسيحية. لم يمض إلا بضع سنوات فتحوّل الأمير فلاديمير من وثني بربري شرّير إلى مسيحي تقي، وأوّل كنيسة أقامها في كييف كانت كنيسة الرقاد في مكان استشهاد ثيودور ويوحنا المقتولين بأمر منه. ولكن كيف حدث هذا التحوّل العظيم في نفسية الأمير الذي كان قد هبط في خطاياه إلى أعماق الجحيم؟

القدّيس فلاديمير – معمّد روسيا

"الإيمان الذي بحسب قلبنا سنقبله"

ذات مرة في أثناء إحدى الولائم وبعد أن باءت بالفشل جهود المهرّجين والبهاليل في إزالة الغم والحزن عن الأمير فلاديمير، دنا منه خاله دوبرينيا شقيق والدته مالوشا، ودوبرينيا هذا كان كبير الولاة.

وكان فلاديمير قد تربّى على يديه وكان دوبرينيا يحبّه وكل ما كان يزعج فلاديمير كان يزعجه أيضاً.

- اسمح لي بأن أسألك أيها الأمير! منذ وقت طويل وهذا السؤال يقلقني.

فأجابه الأمير:

- إسأل.

فقال دوبرينيا:

- لماذا أنت كئيب؟ ما الذي يشغل فكرك؟ إن جيشك قوي وحدود بلادك متينة، والشعب الروسي يمدحك بالأناشيد لأنك أعدت له الهدوء والسلام.

قطب الأمير حاجبيه ونظر إلى خاله نظرة فاحصة وهو يفكر في نفسه: هل سيفهمه خاله؟ ألن يدينه؟ فقال بصوت متقطّع:

- يا خال، أنا لا أؤمن بالأصنام. يبدو أن الروم الحكماء محقون حين يقولون: ليس هناك حقيقة في هذه الأصنام أكثر من حقيقة أنها كتل خشبية. من العار على شعبنا أن يسجد لهذه القرامي الخشبية ويقدّم لها القرابين. نحن بحاجة إلى إيمان آخر.

استمع دوبرينيا بجدٍ إلى الأمير وأسدى له نصيحة حاذقة كما في أيام الطفولة حين كان فلاديمير صغيراً وعديم الخبرة:

- أيها الأمير، لا تستعجل في رفض الأصنام الآن. هذا الأمر مقدور عليه دائماً. دعنا في البداية نتعرّف على إيمان الآخرين. يوجد الكثير من التجّار الأجانب في كييف.

فأحبّ فلاديمير نصيحة دوبرينيا.

- ليكن كذلك! أصدرْ الأوامر إلى التجّار الأجانب بأن يُحضروا في رحلاتهم القادمة إلى روسيا علماءهم. وليحدثنا علماؤهم عن إيمان كل منهم.

والإيمان الذي بحسب قلبنا سنقبله مع كل شعبنا.

أصبح العلماء والحكماء يتوافدون على فلاديمير لدى سماعهم أوامره بخصوص الإيمان، كل منهم محاولاً إقناع الأمير الروسي الأغرّ بشريعته.

ظهر على أبواب الأمير الألمان الكاثوليك. سألهم الأمير مبتسماً:

- **أتشربون الخمر؟**

تبادل الألمان ذوو الأنوف الحمراء النظرات وقالوا:

- **نحن نؤمن بالصوم بحسب المقدرة. من يأكل ومن يشرب فيأكل ويشرب لمجد الله كما علّمنا بولس.**

عبس الأمير فلاديمير، لم يعجبه الإيمان الكاثوليكي. فقال:

- **ارجعوا إلى بيوتكم أيها الألمان. آباؤنا لم يقبلوا إيمانكم ونحن أيضاً لن نقبله. نريد أن نسجد للإله الحقيقي وليس لبابا روما.**

ما أن خرج الألمان المُهانون حتى ظهر في الأبواب اليهود الخزر المتغطرسون. وأرادوا من البداية أن يهينوا الإيمان المسيحي فقالوا إنّ المسيحيين يؤمنون بذاك الذي صلبوه وحكموا عليه بالموت المُخزي على الصليب. فسأل الأمير:

- **وأنتم بماذا تؤمنون أيها اليهود؟**

- بالإله الواحد، إله إبراهيم وإسحق ويعقوب.

- وما هي شريعتكم؟.

أجاب حاخامات اليهود:

- الختان ولا نأكل الأرنب والخنزير ونحفظ السبت.

ابتسم الأمير الروسي بدهاء:

- ولكن أين هو وطنكم؟.

ارتبك اليهود.

- وطننا في أورشليم، ولكن إلهنا غضب من آبائنا ونزع منّا أرضنا وطردنا منها وشتتنا في العالم.

غضب الأمير فلاديمير.

- أيها اليهود، كيف تعلّمون وتعظون الآخرين وأنتم قبلاً أغضبتم الله بحيث أنه حرمكم من أرضكم وشتتكم في البلاد الغريبة؟ اذهبوا ولا تعودوا هنا ثانية!.

بعد عدة أسابيع وصلت إلى كييف إرسالية جليلة من الروم قادمة من القسطنطينية. فاستقبل الأمير فلاديمير السفراء ببشاشة.

- وأنتم أيها الروم، بماذا تؤمنون؟.

- نؤمن بإله واحد آب ضابط الكل، خالق السماء والأرض، كلّ ما يُرى وما لا يُرى. وبربّ واحد يسوع المسيح إبن الله الوحيد...

استغرق فلاديمير في التفكير. فتذكّر استشهاد ثيودور ويوحنا، وتذكر أن جدّته أولغا والكثيرين من رجال روسيا العظام كانوا مسيحيين أرثوذكسيين. ولكن الأمير بقي على شكّه.

- قال لي اليهود: إن الروم يؤمنون بذاك الذي صلبوه وحكموا عليه بالموت المُهين على الصليب. هل هذا صحيح؟ هل يُعقل بأن الإله القوي سمح لليهود بأن يصلبوه، لأنه لو أراد لحوّل جلاديه إلى رماد بنظرة واحدة؟.

أحنى المُرسل الرومي رأسه بوقار. ثم أجاب:

- بالحقيقة نحن نؤمن به، لأن الأنبياء علّموا هكذا. أحدهم تنبّأ كيف هو مُقدّر لربّنا أن يولد، وآخرون تنبّأوا أنه سيُصلب ويُدفن ويقوم في اليوم الثالث ويصعد إلى السماء. حكم اليهود على مثل هؤلاء الأنبياء بالقتل ومع ذلك تحققت نبوءاتهم. قام الربّ يسوع من الأموات وصعد إلى أبيه في السماء. أراد اليهود له العار فصار ذلك سبباً لمجده العظيم.

أحبّ الأمير فلاديمير هذا الجواب وطلب من المرسل الرومي بأن يكلّمه عن إيمانه. تكلّم الرومي طويلا وأخبر الأمير عن خلق العالم وعن كبرياء وغطرسة الشيطان وسقوطه من السماء. ثمّ حدّثه عن آدم وحواء وسقوطهما في الخطيئة وطردهما من الفردوس وعن قتل قايين لأخيه هابيل وعن خطايا بني البشر ونسيانهم لله وعن عقاب الله بالطوفان وعن كل شيء ممّا كان على الأرض قبل مجيء ربنا يسوع المسيح وصعوده.

أنصت الأمير باهتمام لكلام الرومي الحكيم.

- قد عرفت منك عن كل ما كان. والآن كلّمنا عمّا سيكون. ألك علم بذلك؟

- لقد وضع الربّ يوماً واحداً عندما يأتي فيه بمجدٍ ليدين الأحياء والأموات ولن يكون لملكه نهاية. وسيجازي الجميع – الذين كانوا قد عاشوا والعائشين - بحسب أعمالهم. الأبرار سيرسلهم إلى الفردوس، أمّا الخطأة فسيحكم عليهم بالعذاب الأبدي.

قال الرومي هذا ثمّ عرض على فلاديمير قطعة من الكتان مرسوم عليها الدينونة الإلهية. يجلس على العرش الرب الضابط الكل وعن يمينه الأبرار ذاهبون بفرح عظيم إلى الفردوس، وعن يساره يسير الخطأة ببكاء وعويل إلى العذاب الأبدي.

نظر الأمير الروسي طويلاً إلى قطعة الكتّان هذه، ثم تمتم بصوت منخفض:

- **أرغب في أن يكون شعبي مع الذين من جهة اليمين وليس مع الذين من جهة اليسار.**

أجابه الرومي بصلابة:

- **إذا أردت أن تكون مع الأبرار فاعتمد.**

هذه الكلمات كان لها وقع عميق في نفس الأمير، ولكنه لم يعط موافقته فوراً. فأجاب مودّعاً إرسالية الروم إلى القسطنطينية:

- **سأنتظر قليلا!.**

بعد ذلك دعا فلاديمير كبار قادة الجيش وكثيرين من عظماء كييف للتشاور وقال لهم:

- **اعلموا أنه كان عندي اللاتين ... وبعدهم جاء اليهود وشتموا كل الأديان إلا دينهم. لا كرامة في الشتائم مثل هذه. وأخيراً حضر الروم الحكماء الذين قالوا: إذا قبل أحد إيماننا وكان بارّاً فحتى لو مات فإنه سيقوم. يا رجال كييف، لقد أحببتُ دين الروم أكثر من باقي الأديان.**

- فأجابه نبلاء كييف بحذر:

- أنت تعلم أيّها الأمير، هل يعيب التاجر في بضاعته؟ إنهم يمدحون فقط، ولا أحد يعيب في دينه. إذا أردت أن تعرف حقيقة شرائعهم فلنرسل رجالنا الحكماء ليطوفوا في الأرض ولينظروا بأمّ أعينهم إلى أديانهم وعاداتهم. فكيف نصدّق المرسلين غيابياً دون أن نرى؟ من يدري إذا كانوا يقولون الحقيقة؟.

أُعجب الأمير بهذا الكلام.

كلامكم معقول يا رجال كييف، ليكن كذلك. نرسل عشرة رجال ذوي خبرة أوّلاً إلى بلغار الفولغا وبعد ذلك إلى الألمان ومن ثمّ إلى الروم. فليروا كيف يعبد كل شعب إلهه في تلك البلاد، وعند عودتهم يخبرونا.

في اليوم نفسه تمّ اختيار عشرة رجال ذوي فطنة فانطلقوا من كييف إلى تلك الأصقاع.

عندما عاد الرجال المُرسلون دعا الأمير فلاديمير قادة الجيش والنبلاء إلى اجتماع من جديد، وأمر الرجال الوافدين:

- قولوا لنا أين كنتم وما الذي رأيتموه في تلك البلاد.

فسجد الرجال الوافدون للأمير.

- لقد كنّا عند الألمان. ليس هناك جمال في عبادة اللاتين، لا ينفطر لها القلب، ولم تعجبنا عبادتهم. لم نطِل البقاء عند الألمان، فحزمنا أمرنا وانطلقنا نحو الروم.

سأل الأمير بقلق:

- هل رأيتم كيف يعبد الروم الله؟ .

- رأينا أيها الأمير! الجمال الذي رأيناه في معبدهم لا نقدر أن نعبّر عنه بالكلمات. أما العبادة عندهم فهي كأن الله بنفسه قد حلّ على المعبد ويقف بين الكهنة. لن ننسى هذا إلى آخر نفس في حياتنا. كل من ذاق الحلاوة لن يرغب في المرّ بعدها، وهكذا نحن لا نريد أن نبقى في عبادة الأوثان. لم يستهوِنا إيمان آخر سوى إيمان الروم.

صمت الأمير ثمّ التفت إلى قادة الجيش والنبلاء:

- ما قولكم في هذا أيها الرجال؟ أبحسب قلبكم الإيمان الرومي الأرثوذكسي؟.

فأجاب النبلاء:

- نعم، بحسب قلبنا أيها الأمير. لو كانت شريعة الروم بلهاء لما اعتنقتها جدّتك الأميرة أولغا أحكم امرأة بين نساء روسيا.

فرح فلاديمير إذ رأى الإجماع بين رجال كييف الحكماء وسألهم:

- **ليكن كذلك. أين سنقبل المعمودية؟**

أجابه قادة جيشه الأوفياء: - **أينما تحبّ أيها الأمير.**

+++++++

"قد أخذتُ مدينتكم المجيدة بسيفي"

بعد ذلك بقليل في عام ٩٨٨ حدث خلاف بين الروس والروم في مدينة كورسون* حيث تعرّض التجار الروس إلى إساءة ظالمة من قبل حاكم كورسون، لذلك قرر الأمير فلاديمير معاقبته من أجل ذلك. لم يكن من عادات الروس وقتها أن يغفروا الإساءة. كانت إهانة الواحد بمثابة إهانة للجميع.

جمع الروس جيشاً كبيراً وحاصروا المدينة وجعلوا هناك معسكرهم المتين. لم يكن معهم المنجنيق لضرب أسوار المدينة، ولكي يدخلوا المدينة أمر الأمير فلاديمير بأن يكوّموا عند أسوار كورسون متراس ترابي. لكن هذه الخطة لم تكلل بالنجاح لأن

---

* "كورسون" (Корсунь) – صيغة سلافية لاسم مدينة خيرسونس البيزنطية الأثرية في جنوب شبه جزيرة القرم (تقع أطلالها في مدينة سيفاستوبول الحالية).

سكان المدينة حفروا من داخل السور نفقاً وكانوا في الليل يأخذون التراب الذي كوّمه الروس إلى داخل المدينة من خلال النفق.

فطال الحصار الغير ناجح. كان الروم يهزأون من على أسوار كورسون بالروس وهم لا يخشون عقاباً لأن التحصينات القوية للمدينة جعلت اقتحامها بلا جدوى.

كان الحصار سيُرفع لو لم يوجد من بين أهل كورسون صديق للروس اسمه ناستاس. صعد ناستاس هذا على السور وربط على سهم رسالة وأطلق السهم بإتجاه المعسكر الروسي. وكان المكتوب في ورقة الرق المربوطة في السهم هو: **"أيها الأمير! احفر وحوّل إتجاه الماء من البئر الذي يقع إلى الشرق من معسكرك. الماء من هذا البئر يأتي للمدينة بواسطة قناة. ولا يوجد في كورسون مصدر آخر للماء غير هذا البئر".**

انغرس السهم بدقة بالقرب من خيمة الأمير العالية فوجده دوبرينيا في الصباح وأتى به إلى الأمير. ولما قرأوا الرسالة له، سعد بها الأمير وهتف فرحاً:

- إذا حصل واستسلمت المدينة بسبب ذلك، فستكون هذه علامة بأن أعتمد أنا وشعبي!.

وسريعاً تمّ تحويل الماء من البئر إلى إتجاه آخر. فأصبح المدافعون

عن المدينة يعانون من العطش وبعد أيام عدة فتحوا أبواب المدينة. فدخل العساكر الروس المدينة واحتلوها.

عند دخوله المدينة، أرسل الأمير فلاديمير سفراء إلى قيصري الروم باسيليوس وقسطنطين حاملين الرسالة التالية: **"لقد أخذت مدينتكم المجيدة بسيفي. قد سمعت بأن لكم أختاً عذراء حنّه ذكاؤها مشرق ووجها جميل. أعطوني إياها للزواج فأخرج من كورسون، وإذا لم تعطوها لي فسأفعل بالقسطنطينية ما فعلت بكورسون".**

كان الروم يعرفون أنه لا مجال لمقارنتهم مع الروس في القوة الضاربة والشجاعة لأنه في ذلك الزمان كان هناك شغب وفتنة في بلاد الروم، فأجاب الإمبراطوران الحزينان:

- "لا يصحّ للفتاة المسيحية أن تصير زوجة لوثني. إذا تعمّدتَ وأصبحتَ على إيمان واحد معنا، عندها سنزوّجك أختنا. وإذا بقيت على وثنيتك، فنحن كلّنا نفضّل أن نموت في المعركة على أن نسلّم أنفسنا للعذاب الأبدي".

أحبّ الأمير فلاديمير هذا الكلام. ورأى وكأنّ قوة عجائبية توجّهه نحو العماد. فنادى:

- دوبرينيا، ادعُ الكتبة! وليكتبوا جوابي للإمبراطورين الروميين:

- "منذ وقت طويل قرّرتُ في قلبي أن أعتمد. يروق لي إيمانكم الأرثوذكسي وعبادتكم. فليعمّدني كهنتكم الذين سيأتون مع حنة".

سعد قسطنطين وباسيليوس بهذا الجواب وصارا يقنعان أختهما بأن تتزوج من فلاديمير. حزنت الفتاة وبكت، لأنها تصوّرت سفرها إلى روسيا بمثابة نفي أو سجن. لم تكن تريد أن تغادر إلى أرض غريبة إلى الأبد وأن تصبح زوجة لأمير الروس الرهيب.

أخيراً استجابت حنة للأمر، وقالت لأخويها:

- أنا موافقة على الزواج من فلاديمير. أنا أؤمن بأن هذا الزواج سيتمّ لكي تقبل روسيا بواسطته الإيمان الحقيقي وتتجه إلى التوبة. لقد سبّبت روسيا للروم نكبات كثيرة في السابق. ألعلّها بعد هذا تتحنن علينا؟

فأجابها أخواها قسطنطين وباسيليوس:

- صحيح ما قالوه عنك للأمير الروسي، أنك لست فقط جميلة الوجه ولكنك أيضاً ذات ذكاء مبهر.

وسرعان ما صعدت حنة بصحبة الكهنة إلى السفينة التي أبحرت نحو كورسون، وودّعها بالبكاء أخواها وكل بلاط القسطنطينية. شدّت الرياح المواتية الأشرعة بقوة موجّهةً السفن الرومية باندفاع نحو كورسون. وكان البحارة مذهولين لأنه لم يسبق لهم أبداً من قبل أن

أبحروا بهذه السرعة وبدون إعاقات في الطريق.

كان الكهنة المرافقون للأميرة حنة يعزّونها قائلين: **"لا تبكي ولا تتحسّري أيتها الفتاة! إلهنا بنفسه مُسرع في إيصالك لعريسك، لكي من خلال هذا الزواج تعتمد روسيا الوثنية".**

معمودية روسيا

بينما كانت السفينة التي تقلّ الأميرة حنة والكهنة تقترب من كورسون، أصاب الأمير فلاديمير مرض في عينيه، ومن شدة المرض أصبح بالكاد قادراً على الإبصار. وأُعلن أن من يعيد للأمير بصره سيحظى بمكافأة كبيرة. فحاول الكثيرون من الأطباء الروم المبدعين أن يعالجوا الأمير ولكن كل محاولاتهم كانت بلا جدوى.

مع وصول السفينة إلى ميناء كورسون علمت الاميرة حنة بمرض عريسها فأرسلت له تقول بأنه إن أراد أن يبصر فيجب عليه أن لا يتباطأ أكثر في العُمّاد. سمع الأمير الخبر ثم قال:

- إذا حصل هذا وعاد إليّ بصري، فبالحقيقة عظيمٌ هو إله المسيحيين.

وبعد قليل في الكنيسة الرئيسية للمدينة قام أسقف كورسون مع الكهنة القادمين من القسطنطينية بتعميد الأمير الروسي العظيم بعد أن أرشده في الإيمان. أخذ فلاديمير اسماً مسيحياً في المعمودية وهو"**باسيليوس**". وحدثت أعجوبة. فجأة أبصر الأمير في اللحظة التي وُضعت عليه الأيدي، فرأى بنفسه مع كل الحاضرين إرادة الله المبينة.

بعد مراسم الإكليل غادر الأمير فلاديمير المدينة الرومية بموكب احتفالي عظيم مودَّعاً من جميع أهالي كورسون. وسافرت الأميرة حنة

وناتاس المخلص صاحب السهم مع الأمير ومع جيشه الوفي إلى روسيا. وكان معهم أيضاً الأسقف ميخائيل المُعيّن أسقفاً على روسيا وكثير من الكهنة مع كل الأواني والحاجيات اللازمة لإتمام الخدمة الإلهية والأسرار المقدسة، حاملين معهم ذخيرة من جسد القديس كليمنت* وتلميذه الأمين فيف.

أما مدينة كورسون فأعادها الأمير فلاديمير إلى القيصرين قسطنطين وباسيليوس مثل فدية أو مهر للعروس. وكان دفع المهر أو الفدية عادة روسية قديمة.

دخل فلاديمير كييف مع جيشه ومرافقيه. خرج إلى الشوارع جميع أهالي كييف من الصغير إلى الكبير مرحبّين بأميرهم حامي الديار. وكان مع المستقبلين غلام إسمه **"ياشكا"**. ركض ياشكا طويلاً خلف حصان الأمير إلى أن دخل الأمير بوابة المدينة.

ولدى وصوله إلى كييف أصدر الأمير في الحال أوامره بتطهيرها من الأصنام ومن المعابد الوثنية. فقال لدوبرينيا:

---

* القديس الشهيد في الكهنة كليمنت بابا روما – كان جزء من رفاته محفوظاً في خيرسونس بعد أن وجدها القدّيسان كيرلس وميثوديوس بطريقة عجائبية أثناء تواجدهما هناك.

- **لن تتجّس هذه الأصنام أرضنا من الآن فصاعداً.**

كان دوبرينيا الذي قبل المعمودية المقدسة مع الأمير في كورسون يقف مطأطئاً إلى الأرض. لقد كان هو والأمير يدركان بأن القضاء على الأصنام التي يؤمن بها الكثير من الشعب الروسي لن يكون بالأمر السهل وأن الدموع الكثيرة ستُذرف.

قال دوبرينيا:

- **سأنفذ أوامرك أيها الأمير.**

في اليوم التالي اشتعلت النار في جميع ساحات كييف الكبيرة. البعض من الأصنام كانوا يحرقونها والبعض الآخر كانوا يقطعونها بالفؤوس. أما كهنة الأوثان فناحوا وفحّوا كالأفاعي وهدّدوا وتوعّدوا وتمسّكوا بأصنامهم الخشبية، لكن العسكر كانوا يصدّونهم بقنوات الرماح. وارتبك أهالي كييف ارتباكاً عظيماً.

الغلام ياشكا، الذي سبق وركض خلف حصان الأمير، وقف على منحدر نهر الدنيبر، وكان ينظر بخوف كيف ربطوا بيرون**

** بيرون – إله الرعد عند السلاف القدماء وكان يترأس قائمة الأصنام في عهد الأمير فلاديمير قبل قبوله المعمودية.

الرهيب بالأحصنة ويجرّونه من على الجبل بشكل مهين. كان الاثنا عشر جندياً المكلفون يضربونه بالعصي ويوخزونه بالحراب وهم يصرخون:

- **انظروا، أيها الروس، هذا ليس إلهاً، إنما كتلة من خشب البلوط.**

كان صنم بيرون ثقيلاً جداً بحيث أن الأحصنة كانت تثني سيقانها الخلفية وهي تجرّه للأسفل. كان بيرون ينزل الجبل ببطء وكأنه مُكره، كان يحفر شقوقاً في الأرض بشاربيه وينزلق متثاقلاً، وتفلّق غشاؤه الذهبي تحت وخز الحراب.

وأخيراً تم جرّ بيرون إلى الضفة ثم ألقوه في نهر الدنيبر. غطست الخشبة عميقاً في الماء ثم طفت على السطح وأبحر مع التيار بدوران بطيء.

كثيرون من أهالي كييف ذرفوا الدموع وتبعوا بيرون من ناحية الشاطئ مشيّعين صنمهم العائم. وخوفاً من أن ينتشل الناس بيرون ويخبئوه اضطر دوبرينيا إلى أن يضع عساكر تراقبه فأمرهم:

- **اركضوا وراء الصنم وادفعوه إلى الماء فيما لو أتى به الموج إلى ضفاف النهر.**

سأل العساكر:

- **هل نتبعه طويلا؟.**

- **إلى عتبات الدنيبر.**

في نفس الوقت الذي كانت تُدمّر فيه الأصنام شرع فلاديمير في وعظ الشعب بالإيمان المسيحي. كان الكهنة القادمون من القسطنطينية بمعية مطران روسيا الجديد ميخائيل يطوفون في طرقات كييف وساحاتها شارحين للناس كلمة الله. كان الأمير نفسه مع عساكره المعمّدين يشارك في الوعظ وكان يشجّع المتشككين بقدوته.

- **أميرنا يحبّ شعبه. لو لم تكن المعمودية لخيرنا وفائدتنا لما كان هو نفسه قد قبلها ولما أمرنا نحن بقبولها.**

بهذا الكلام كان أهل كييف يقنعون أنفسهم.

وعندما تهيّأت غالبية الشعب أمر فلاديمير بتبليغ الجميع بالقدوم في اليوم التالي إلى نهر الدنيبر لقبول المعمودية. وهكذا في الأول من شهر أغسطس – آب من سنة ٩٨٨ في يوم صحو ومشمس قبلت روسيا المعمودية.

نزل أهل كييف بشبّانهم وشيوخهم إلى مياه الدنيبر الهادئة. تجمّع

كبار السن قرب الشاطئ، أمّا الرجال والشباب فكانوا يدخلون بجرأة إلى الأعمق حاملين على أيديهم الأطفال. وكانت أنظار الجميع متجهة نحو الشاطئ. هناك على منصّة خشبية كان الأسقف ميخائيل والكهنة الروم بلباسهم الكهنوتي الفاخرغير المعهود يتمّمون سر المعمودية.

كان الأمير العظيم فلاديمير هو عرّاب شعبه، وكان مجرّد وجوده على المنصّة مع العسكر يشجّع أهل كييف. بعد أن أتمّ الأسقف ميخائيل العماد استدار نحو الأمير وبانت الدموع في عينيه. فسأل الأمير مستغرباً:

- لماذا تبكي يا ميخائيل؟.

- أنا أشعر الآن بأن نعمة الله تتحدر على الشعب الروسي. سيكون هذا الشعب مجيداً، ويكون قاعدة متينة للإيمان الأرثوذكسي. ومع أن هذا الشعب سيمرّ بتجارب عظيمة سيصبر عليها كلها ويتكاثر وينتصر على جميع أعدائه ويكون له مجد عظيم.

آمين

تبارك الله خالق كل الأشاء بحكمتة الذي يرغب فى أنقاذ عقول البشر بمعرفتهم للحقيقة. تبارك لأنة لم يترك أرض روسيا . ولم يسمح بأن تستمر فى ظلام الجهل ولم يتركها بعيداً عن سبل النجاة.

هكذا ظلت الأراضي الروسية فى ذلك الظلام إلى أن حصلت على النجاة بالروح القدس، عندما أهتدت إلي الأرثوذكسية المقدسة وتعمدت فى عهد الأمــير فــلادمير الذي أنارها بنور الإيمان وفتح لها نور الشمس العقلي مشرقة مع الصالحات لتنير روسيا ولتحجب نور الشمس والقمر والنجوم .

التراث السلافي الأرثوذكسي

Al Jabal